



مدينة نفطة خلال العصر الوسيط: التاريخ والعمران والعالم

نورالدين النوري

جامعة سيدي بلعباس

noureddinenouri@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2018/03/31

تاريخ القبول: 2018/03/01

تاريخ الإيداع: 2017/01/15

الملخص:

موقع مدينة نفطة الاستراتيجية، بالجريد التونسي جنوب غربي العاصمة، كيوابة للصحراء ومحمية طبيعيا على مضيق شطي الجريد والغرس، جعلها واحة خصبة لترعرع بعض المذاهب والتيارات الفكرية والانفصالية واستقطابها خلال العصر الوسيط وجعلها مجالا لإعلان الخروج عن السلطة المركزية ببلاد إفريقية عن طريق المجالس القروية والعائلات الحكيمة، وهذه الديناميكية الفكرية والنزعة الاستقلالية جعلتها عرضة إلى حملات تأديبية أثرت في واقعها التاريخي ومشهدها الحضري. ونظرا إلى اندثار المدينة الوسيطة بمعالمها مثلت المصادر المرجع الوحيد للبحث الأثري، والتنقيب فيها مكن من الكشف على معالم المدينة الوسيطة والتحولت العمرانية التي عرفت.

الكلمات الدالة:

نفطة؛ قسطلية؛ الجريد؛ توزر؛ بنو الخلف

Abstract:

The strategic location of Nefta, Tunisian Djerid country western South of Tunis, as a desert gate and naturally protected in the Chotts strait, Gharsa and Djerid, turned it into a fertile oasis to pasture and polarize some doctrines and ritual intellectual currents and secessionist trends during the Middle Ages. This location encouraged the town to declare its autonomy from the central authority in Ifriqiya lead by village councils and ruling families. This intellectual dynamism and autonomy tendency made it vulnerable to disciplinary campaigns that influenced on its history and urban scenery. Due to the total demolition of the medieval city, the bibliographic sources became the only references of the archaeological researches, so that the researchers should achieve a deep prospection within these sources to detect the medieval monuments and urban mutations.

Key words:

Nefta, Kastelia, Jarid, Touzer, Banu Khalaf

تقع مدينة نفطة في إقليم الجنوب الغربي للبلاد التونسية، في مجال واحي سمي خلال العصر الوسيط المبكر ببلاد قسطنطينية، وهي تعريب لكلمة قصر *Castellum* اللاتينية نظرا إلى وجود القصور المسورة فيه، ثم سمي خلال الوسيط المتأخر مع التجاني وابن خلدون (ق 8هـ/14م) ببلاد الجريد أو البلاد الجريدية^(١)، لواحاح نخيله الممتدة، وهو الآن، إداريًا، ولاية توزر. وتقع مدينة نفطة على 20 كلم جنوب غربي مركز الولاية، توزر، وعلى امتداد خطي العرض 30 درجة و50 دقيقة شمالا والطول 7 درجات و53 دقيقة شرقا^(٢). وتبعد على العاصمة تونس بحوالي 473 كلم جنوب غربها، وعن القيروان 321 كلم جنوبا وعلى الحدود التونسية الجزائرية 35 كلم غربا^(٣)، وأعلنت يوم 25 ديسمبر 1919 معتمدية بذاتها.

توجد مدينة نفطة في مضيق الشطوط بين شطي الجريد والغرس، وهي على هضاب ذراع نفطة، وهي امتداد لهضاب ذراع الجريد جنوب جبال قفصه، والمدينة الحالية بُنيت شمال المجال الواحي، المجال الزراعي للمدينة، وكان يشقها وادي ينتهي إلى جنان واحاتها، جف في منتصف التسعينات من القرن العشرين. ويحد موضعها من الغرب والجنوب الصحراء الكبرى، ومن الشرق والجنوب الشرقي شط الجريد ومن الشمال صحراء توزر وشط الغرس.

نظرا إلى موقعها الإستراتيجي كبوابة للصحراء الكبرى مثلت ملاذا آمنا لبعض القبائل خاصة التي تدين بالإباضية للهروب من ملاحقة السلطة المركزية بالقيروان ثم المهديّة ثم تونس، لتكون مفترقا يلتقي به مختلف القبائل والمذاهب المختلفة كالصفري ثم الإباضي بشقيه النكاري والوهابي والشيوعي والمالكي.

أولا- تاريخ مدينة نفطة خلال العصر الوسيط وتأثيره على المشهد العمراني:

1- نفطه في العهد القديم:

أ- أسطورة تأسيس مدينة نفطة:

يذكر دي كلام *De Clam* في دراسته الكرونولوجية حول تاريخ مدينة نفطة أن مؤسسها، حسب ما جاء في الأساطير، هو قسطل بن سام بن نوح، وقد سميت المدينة باسمه. واستمر وجود مدينة قسطل ثلاث قرون، ثم عوضتها مدينة شمال الواحة قرب زاوية سيدي أحمد بن الحاج سميت "تكهوار" ووقع هدمها بعد 5 قرون كما سميت أيضا "حمزة". ثم انتقل أهالي "تكهوار" إلى جنوب الواحة قرب ضريح سيدي حسن عباد حاليا وأسسوا مدينة "فرشانة" التي عُمِّرت على مدى 3 قرون. ويرجع المؤلف سقوط فرشانة إلى حملة فلقلوب بن خزرون على الجريد⁽⁴⁾ سنة 400هـ/ 1009م أو إلى هجمات بني هلال على المنطقة⁽⁵⁾. ويذكر ابن الشباط هذه الأسطورة في إطار التأريخ لاستقرار الإنسان ببلاد الجريد⁽⁶⁾.

أما الأسطورة الشعبية التي يتوارثها سكان المدينة ويردونها كثيرا تتمثل أطوارها أن قسطل بن سام بن نوح أبحر يبحث عن يابسة يُرسي بها عند الطوفان، بعد أن غمرت المياه كل المعمورة، فرأى من بعيد أرضا بارزة أو يابسة أو جزيرة فصاح قائلا لأصحابه "لقد نَقَطْتُ" أي ظهرت للعيان، لذلك سميت اشتقاقيا بنفطه وهي أول أرض نشأت بعد طوفان نوح. وتوجد حفرة أمام الكتلة العمرانية الصغيرة لضريح "سيدي حسن عباد" جنوب المدينة يعتقد سكانها أنه قبر قسطل بن سام بن نوح، ولا تُقبل زيارة مقام سيدي حسن عباد إلا بالطواف حولها 7 مرات، لكنها هي في الحقيقة أثر لمنبع ماء جاف⁽⁷⁾.

ب- نفطه خلال الفترة الرومانية:

حسب بلييني الأكبر *Plinie l'Ancien* كانت مدينة نفطه موطنًا لقبائل *Natio Nuptium* التي ذكرها في تاريخه في هذا المجال خلال القرن الأول الميلادي⁽⁸⁾ والتي تحدث عنها بطليموس *Ptolémée* (100-170م) وذكرها باسم *NUKPII*⁽⁹⁾. ويبقى هذا الاستنتاج هو الأقرب إلى الحقيقة التاريخية أمام غياب عدة معطيات عن تاريخ نفطه الروماني. لكن أهمية المدينة بدأت خلال فترة العهد الإمبراطوري المتأخر *Bas - Empire* إذ تذكر الوثائق الكنائسية بالمجال أسماء معسكرات *Castris Neptensis* وقادتها⁽¹⁰⁾، وهذه مؤشرات تؤكد على الدور الاستراتيجي الذي أصبحت

المدينة تلعبه كنقطة ربط بين أهم جهات خط الليماس رغم غياب مؤسسات عسكرية شُيّدت بالواحة، وهو ما يرشح المعسكر لأن يكون حلقة الربط المتقدمة في الليماس الإفريقي.

ج- تأسيس المدينة:

يمكن الاعتقاد أن أول نواة حضرية بواحة نفطه أسست خلال القرن الأول بعد حرب تاكفاريناس (17-24 م) التي من نتائجها اتساع مجال خط الليماس الإفريقي في اتجاه الجنوب⁽¹¹⁾. ومن المحتمل أن هذه النواة كانت موطناً لقبائل *Nuptium Natio*⁽¹²⁾ ويقترح *Desanges* أن تكون القبيلتان *Nugitimi* و *Nukpii* المذكورتان خلال القرن 2م هما من أسسا المدينة، وحسب ما ورد في رحلة شو *Shaw* فإن بطليموس *Ptolémée* ذكر المدينة تحت اسم *Negeta* أو *Nepata* أو *Nitata*⁽¹³⁾ وهو أول ذكر لنواة حضرية بالموقع وربما كان أول استقرار للإنسان المتحضر بالمجال.

د- الأسماء التي حملتها المدينة خلال العهدين الروماني والوندالي:

ذُكرت المدينة في المصادر القديمة بأسماء مختلفة:

* *NEGETA, NEPATA, NITATA*: حسب ما أورده شو *Shaw* في رحلته فإن بطليموس *Ptolémée* ذكر المدينة تحت اسم *Negeta*⁽¹⁴⁾، وذكرها في مواقع أخرى بأسماء مختلفة *Netata* أو *Nitata*⁽¹⁵⁾ وهو ما يرجح النظرية القائلة بأن استقرار قبائل *Nukpii* و *Nugitimi* بالواحة أدى إلى تأسيس أول نواة حضرية بها وهي *Negeta* وسترقي إلى رتبة مدينة رومانية خلال القرن 4 م.

* *AGGARSEL NEPTE*: ذُكرت التسمية سنة 393 م بلوحة بيتنكير *Table de*

Peutinger⁽¹⁶⁾، ويرى ش. تيسو أن الاسم مركب من عنصرين، الأول: أقرسال *AGGARSEL*، هي تسمية مألوقة بمقاطعة إفريقيا الرومانية، إذ ورد في اللوحة المذكورة موقعا مباشرة بعد نفطه يحمل هذا الاسم، ويقع 8 كلم شرقي صبرية و28 كلم جنوب غربي دوز، وتذكر اللوحة موقعا آخر على الطريق المؤدية إلى هنشير القصيبات *THUBURBO MAIIS* وتوجد حاليا بسيدي عبد الرحمان القرسي. ومواقع أخرى عديدة تسمى *Aggar* مثل سيدي عمارة بمكث⁽¹⁷⁾ وغيرها. أما المركب الثاني:

أي نبتة *Nepte* فهو اسم المدينة ويرى أن *Aggarsel- Nepte* يعني مجال متساكني نفطه أو واحة متساكني نفطه *Nepte* ويعتبره اسماً لوبيا-مصرياً ويقرب الطوبونيميا اشتقاقياً *étymologiquement* إلى *Nepata* اسم مقاطعة النوبة المصرية جنوباً⁽¹⁸⁾ و يقرب بليقران *A. Pelligrin* طوبونيميا *Nepte* إلى قبيلة *Nephtoah* التي ذكرت في التوراة⁽¹⁹⁾.

* *NEPTITANUS*⁽²⁰⁾: ذكرت المدينة في وثائق مؤتمر قرطاج -المجمع الكنسي- سنة 411م كأسقفية تحمل اسم *Episcopus Nebbitanus* وأسقفها *Quodvultdeus Nebbitanus* ثم ذكرت سنة 484م في الوثائق الكنائسية واسم أسقفها *Laetus Neptitanus* وهو رجل دوناتي عارض التواجد الوندالي فأحرق حياً بأمر من ملك قرطاج *Huneric* يوم 24 سبتمبر 484م، وما زالت الكنيسة الكاثوليكية تُحيي ذكرى اغتياله كل سنة⁽²¹⁾.

هـ - موقع المدينة الرومانية وموضعها:

- الموقع:

حسب ما رسم على لوحة بتنقير *Peutinger* فإن *Aggarsel - Nepte*، إن كانت حافظت على نفس موقع *Negeta* بطلميوس، فقد كانت تقع على حوالي 30 ميلاً جنوب غربي توزر *Thusuros* على المضيق الفاصل بين شط الغرسة وشط الجريد *Lacum Trinitum*⁽²²⁾ وهي على بعد 115 ميلاً من *Aggarsel*⁽²³⁾ (صبرية). لكن المسافة الفاصلة بين توزر ونفطه هي 23 كلم فقط أي حوالي 16 ميلاً رومانياً، ربما خطأً واضع اللوحة في تحديد المسافة لعدم معرفته الجيدة بالمنطقة.

- الموضع:

عند زيارة ف. قيران *V. Guérin* إلى مدينة نفطه سنة 1861 مر شمال وادي نفطه بموقع يسمى "زغفرانة القديمة" اعتبره موقعاً لربض روماني. ويرى الرحالة أن المدينة الرومانية بنيت جنوبي الواحة على ضفة سبخة شط الجريد قرب ما يسمى الآن "مرسى نفطه" أو "البحر".
بناءً على ما تقدم، فإننا نفترض أن *Aggarsel* هو اسم لربض المدينة الذي يقع قرب مبنى ضريح سيدي حسن عياد في الموقع الذي افترض قيران *V. Guérin* أنه موقع المدينة الرومانية. أما *Nepte*

فهو اسم المدينة أو شبه الحاضرة وتقع قرب المدينة الحالية إذ يُذكر أنه عُثر بالموقع على نقيشتين فُقدتا ولم نتسكن من الاطلاع عليهما، وفي إطار غياب مؤشرات أثرية فإن موضع المدينة الرومانية يبقى مجهولاً في انتظار الأبحاث الأثرية.

2- مدينة نفطة خلال العصر الوسيط:

أ- خلال الوسيط المبكر:

خلال الحملات الأولى للمسلمين أو فترة طوالع الفتح على إفريقية لم تذكر المصادر وصول المسلمين إلى قسطنطينية، بلاد الجريد، مما يجعلنا نستبعد أن تكون المدينة عرفت تحولات في المشهد العمراني خلال هذه الفترة وبذلك حافظت على مشهدها الحضري القديم المتشكل من المدينة والريص، وحسب المصادر فإنها كباقي بلاد الجريد فُتحت صلحا وأسلم سكانها سلمياً دون سلاح تأمينا على أرزاقهم وممتلكاتهم⁽²⁴⁾ وبذلك أصبح أهل نفطة يدفعون الجزية⁽²⁵⁾، وربما فتحها عقبة بن نافع سنة 42 هـ خلال ولايته الأولى في إطار فتحه لساثر بلاد الجريد (قسطنطينية) وغدامس وفزان وقابس وقفصة فتحا ثانيا بعد أن فتحت قبله وارتدت، وما يدل على أنها فتحت صلحا هو ما بقي بعد الفتح بالمدينة من جالية النصارى التي ذُكرت حتى القرن 5 هـ / 11 م، ولم يقع التصرف في كنائسهم إلا خلال القرن 8 هـ / 13 م⁽²⁶⁾.

خلال القرنين الـ 2 و 3 هـ / 8 و 9 م عرف المجال حركية مذهبية وفكرية هامة أثرت على المشهد العمراني به، فلقد انتشر بالمدينة المذهب الخارجي ومثلت واحتها المنفعة ملجأ لعدة جاليات صفرية ومفرا لها، وموقع المدينة البعيد عن مركز ولاية إفريقية، القيروان، يعتبر مهدا لنشوء عدة حركات استقلالية وترعرعها، وبقيت العصبيّة البربرية حية في أذهان أهالي المدينة رافضة حكم ولاة العرب. وشارك أهلها الصفرية في حصار مدينة القيروان مما جعلها عرضة لحملة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري إمام الإباضية على طرابلس في إطار حربه على صفرية ورفجومة نفاوة سنة 140 هـ / 757 م⁽²⁷⁾، وربما هذه الحملة غيرت التوجه الفكري لخوارج المدينة من المشرب الصفري إلى المشرب الإباضي، ومثلت واحة خصبة لانتشار هذا الفكر.

عرفت المدينة في نفس القرن نزول المذهب الشيعي بها، ويذكر لنا القاضي النعمان سنة 145هـ/762م كيف وصل المذهب الشيعي إلى نفطة، فلقد كان تجار المدينة يترددون بالتمر على ناحية تالة، وسط بلاد إفريقية، ليشتروا القمح فالتقوا هناك بالداعية أبي سفيان الشيعي الذي حل بإفريقية سنة 145هـ/762م مع الحلواني ونزل معه مرماجنة، فاستمعوا منه وأخذوا عنه⁽²⁸⁾.

أثناء هذه الحركية الفكرية والمذهبية ستعرف الواحة سنة 283هـ تحولاً عمراً هاماً ببناء روض قنطرة على موقع يراقب الطريق المارة عبر الواحة، وأسست الروض جالية نفوسية فرت من ملاحقة بني الأغلب بعد تغلبهم على جبل نفوسة في واقعة مانو في نفس السنة⁽²⁹⁾، وهذه الهجرة النفوسية ستأثر على المشهد الحضري للمجال وتصبح بذلك المدينة شبه حاضرة بربضين الأول: فرشانة، الروض الروماني ويقع جنوب المدينة والواحة معاً. أما الثاني: روض قنطرة أو قنطار الذي نجعل موقعه من الواحة ولا يمكن تحديده إلا بحفريات وبحوث أثرية معمقة.

يذكر ابن عذاري ضمن أحداث سنة 296هـ / 908م خلال حملة الداعية أبي عبد الله الشيعي أن خيوله أحرقت القرى وأفست ما مرت به عند وصولها قسطنطينية خلال حملته على جنوب بلاد إفريقية⁽³⁰⁾، وهو ما سكت عنه القاضي النعمان في ذكر حملته على قسطنطينية وفتحها⁽³¹⁾، وربما تعرضت المدينة إلى النهب بسبب الفكر الإباضي المستقر بها، وهو ما دعم الشق الشيعي بالمدينة على حساب إباضيتها، وربما تعرض روض قنطرة أو جزء منه للتهديم، لأن أهله يدينون بالإباضية، ونحتمل أيضاً أن روض فرشانة قد هُدم في نفس الحملة، إذ لم نجد ذكر له في المصادر الوسيطة بعد هذه الفترة، وبذلك لم يبق حول المدينة سوى روض قنطرة الوهابي الذي سكنته جالية نفوسية ثم نزل به بطن من لواتة خلال القرن 4هـ / 10م⁽³²⁾.

عند اشتداد شوكة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى سنة 333هـ / 944م⁽³³⁾ خلال ثورته المعروفة بثورة صاحب الحمار ستلجأ جالية من بني درجين البربرية، التي كانت ديارها بأرض سماطة غربي نفطه وتدين بالإباضية الوهابية⁽³⁴⁾، إلى غربي نفطه لتؤسس ربضاً يحمل اسمها خوفاً من بطش صاحب الحمار النكاري وردة فعله، والذي بدوره دخل مدينة نفطه واستباح أهلها وممتلكاتها. وبعد

تأسيس قبيلة بني درجين لربضهم أصبح حول المدينة، خلال القرن 4هـ / 10م، رمضان: قنطار ودرجين كانا على الفكر الإباضي الوهابي وربطت بينهما علاقات فكرية وثيقة أكدها الدرجيني في حديثه عن تنقل العزابة بين الريضين والمدينة⁽³⁵⁾. وبعد انهزام النكاري، أبو يزيد مخلد بن كيداد، صاحب الحمار، تفرق أتباعه وقطنت طائفة منهم واحة نفطة⁽³⁶⁾ وربما أسسوا في قلب الواحة جنوب المدينة ربض فطناسة ولذلك اشتدت الصراعات الحادة بين شقي الإباضية النكار والوهابية من جهة، على مستوى الأرباض الثلاثة، قنطار ودرجين الوهبيتين وفطناسة النكارية، ومن جهة أخرى في داخل المدينة بين الشيعة والإباضية والمالكية. ودخلت المدينة في عدة صراعات داخلية قد أثرت على النسيج العمراني لها، إذ في بداية القرن 5هـ / 11م يذكر لنا ابن الأثير نفطه على أنها ذات أعمال ويشير إلى استقرار جمع من الشيعة سنة 423هـ في بلد منها⁽³⁷⁾. وفي نفس القرن (5هـ / 11م) ستكون المدينة عرضة لحملة جيش صنهاجة خلال حربهم على درجين سنة 440هـ / 1080م⁽³⁸⁾.

أما خلال القرن 6هـ / 12م، دخلت المدينة سنة 583هـ / 1187م تحت وطأة بني غانية المسوفين⁽³⁹⁾ الذين قطعوا جزءا هاما من الواحة وهدموا جزءا من المدينة وربما هدمت قنطرة وعوضتها قنطرة الفوقية التي يذكرها الدرجيني لأول مرة في الطبقة الـ 12: 600 / 550 هـ⁽⁴⁰⁾، والتي ربما هُدمت في إطار الصراعات الداخلية بين شقي الإباضية وأصبحت في القرن 7هـ / 13م، خلال عصر ابن الشباط (618هـ - 681هـ) خرابا⁽⁴¹⁾ "ولم يبق من عمل نفطه إلا درجين"⁽⁴²⁾ وفطناسة. ومن المحتمل أن فطناسة هي أقل أهمية من درجين إذ من المؤكد أنها لم تكن سوى مجال رعوي لتركيز خيم القبيلة، ولم تبين بها نواة حضرية هامة وربما اكتفت ببناء سور حول مكان توطنها، إذ لم نعث على لقى أثرية بالموقع رغم أنه استغل زراعيًا من بعد ولم يتم تعميره ولم يبق بالمجال سوى طبونيمية "جر فطناسة" أي واحة فطناسة.

نزلت بمدينة نفطة خلال نهاية القرن 6هـ / 12م شخصية ستلعب دورا فكريا وروحيا هاما وستأجج من الصراعات المذهبية بالمجال، وهو المتصوف أبو علي الملقب بالنفطي أو السني، ذلك لدوره في نشر المذهب السني بنقطة والتي مات فيها ودُفن بها، والذي حل بالمدينة لدعوة السكان إلى المذهب

المالكي، وهناك من يرى أنه جاء لمحاربة أصحاب الفكر الإباضي والشييعي، لذلك ستعرف المنطقة ذروة الصراعات المذهبية في ظل سعي الدولة المركزية الموحدية إلى نشر المالكية والسنية بالواحة والتي أصبحت قطبا للإباضية بجنوب إفريقية، وحسب الموروث الشعبي اللامادي لسكان بلاد الجريد فإن الولي سكن أرض فطناسة والتف حوله سكانها وولوه على أنفسهم، وكناية في وهبية باقي الأرباض دان سكان هذا الريض بالمالكية السنية وأصبحوا من شق الولي المتصوف ومن أتباعه. واحتد الصراع بين فطناسة وقنطرة، ونظرا إلى ضعف الأخيرة ربما ستسقط وتُهدم خلال هذه الظروف، وبين فطناسة ودرجين، وأدت هذه الصراعات إلى سقوط ربيض درجين خاصة بعد أن اغتال محمد بن النخيلي الولي، أبي علي السني، بتسميمه.

أبو علي السني هو عمر الحسن بن محمد بن ابراهيم، يرجع نسبه لعلي بن أبي طالب، وأصله من قرية فرجانة بالمغرب الأقصى، ولد بها سنة 493هـ/1100م، وكانت له المكانة السامية لدى الدولة الموحدية خاصة بعد مساعدته على استعادة مدينة تونس من يد يحيى بن اسحاق الميورقي وأخيه علي سنة 600هـ/1203م، ثم حل بعمل نفطة لنشر المذهب السني وارتفع شأنه ببلاد الجريد وجنوب إفريقية بعد ما أكلت له مهمة مراقبة ركبان الحجيج المارين بالمنطقة ومنحه امتيازات عقارية وجبائيه في إطار "ظواهر التوقيير"، وامتد نفوذه وأصبح له نية الاستقلال بالجنوب، فخشى البيت الحفصي أن تؤسس هذه الشخصية إمارة مستقلة بجنوب إفريقية، فأرسل أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص (604 - 618هـ/ 1207 - 1221م) أبا عبد الله محمد بن أحمد إسحاق النخيلي، المتوفى سنة 618هـ/1221م، كاتبه وشاعر البيرة، إلى بلد نفطة ووضع له تينة مسمومة في نهر كان دائما يشرب منه، فأخذ أبو علي التينة وأكلها فتوفي، فاتَّهَمَت قبيلة بني درجين بجرم الاغتيال فشن عليها أتباع الولي حرب إبادة قادها يوسف الدهماني⁽⁴³⁾.

ثأرا لقتل أبي علي السني شن أنصاره⁽⁴⁴⁾ حملة وُجِّهَت ضد ربيض درجين وهُدِم خلال القرن 7هـ / 13م بعد سنة 681هـ، إذ يذكر ابن الشباط (618 - 681هـ) أنه في عهده لم يبق من عمل نفطة سوى ربيض درجين، وبعد القرن 7هـ / 13م سكنت المصادر عن ذكر درجين. وتذكر بعض المراجع الفرنسية، خلال فترة الاستعمار، أن يوسف الدهماني قاد جيشا من نفزاوة والقيروان وهاجم درجين

وهدمها⁽⁴⁵⁾. ومن المؤكد أنه بنيت على أطلال ربح درجين قرية بني علي في نفس الموقع والموضع غربي نفطه قرب ضريح سيدي مرزوق. وهي قرية سكنها بعض الأشراف الذين جاء جدهم علي بن عيسى بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر من بلاد الزاب هروبا من الفتنة التي استهدفت الأشراف⁽⁴⁶⁾. وانطلاقا من القرن 7هـ / 13م سيكون للمدينة رمضان الأول: في مجالها الواسع جنوبا وهو فطناسة والثاني: غربها وهو قرية بني علي، والريضان هما عبارة عن قصرين مسورين منفصلين إداريا عن شبه الحاضرة نفطه التي بها قصبة وعليها سور⁽⁴⁷⁾.

ب- مدينة نفطة خلال الوسيط المتأخر: فترة حكم بني الخلف:

خلال الفترة الوسيطة المتأخرة ونظرا إلى موقعها المنعزل والبعيد عن قاعدة الحكم وعاصمة السلطة المركزية، أفلحت مدن بلاد الجريد في الحفاظ على استقلالها الذاتي، وبذلك اعترفت سوريا بسلطان الموحدين ثم بني الحفص بتونس، ومثلت هذه المدن قرى أو قصور شبه مستقلة يتداول الحكم عليها مجالس من الأعيان أو يدير أمرها أسر من ذوي النفوذ العريض مثل بني فرقان ثم بني وطاس من بعدهم الذين حكموا بلاد توزر⁽⁴⁸⁾. وعندما بدأ البيت الموحي في الانحلال حاولت مدن الجريد استعادة استقلاليتها. فاستغلوا نشوب الصراعات بين أمراء تونس الحفصيين وأمراء بجاية لتعود إلى استقلاليتها، وحاربت الدولة الحفصية طوال القرن 8هـ / 11م بزعماء أسرها ذات النفوذ القوي، كبني يملول في توزر وبني الخلف في نفطة وبني أبي المنيع في الحامة وبدعم من قبائل العرب الهلالية وبمحالفة بني مزني أمراء بسكرة. مما جعل السلطان أبا يحيى أبو بكر الثاني المتوكل (718 - 747هـ / 1318 - 1346م) يغزو بلاد الجريد ويولي عليها ابنه. لكن عند وفاة هذا الوالي سنة 747هـ / 1346م انتفضت مدن الجريد ثانية ودانت لسلطان المرينيين⁽⁴⁹⁾، لكنها استعادت استقلاليتها إثر هلاك جيش أبي الحسن المريني بالقيروان. ثم أخضعت إلى البيت الحفصي من جديد من طرف أبو العباس الحفصي، لكن الظفر الذي ناله أبو العباس هذا لم تدم آثاره، إذ أصبحت بلاد الجريد مستقلة بالفعل خلال القرنين 8هـ و9هـ / 14م و15م، إذ عند وفاة أبي بكر (747هـ / 1346م)⁽⁵⁰⁾ دخلت إفريقية في اضطرابات بعد أن تغلبت الأعراب على نواحيها.

عندما استولى بنو مرين على بجاية سنة 754هـ / 1353م واحتلوا كل إفريقية سنة 758هـ / 1357م عادت الشورى (حكم المجالس) ببلاد الجريد وحكمت المجالس القروية وسمّوا أنفسهم بالقباب الخلافة⁽⁵¹⁾.

بنو الخلف الذين حكموا نفطة هم بطن من بطون بني مدافع التي تنتسب إلى غسان التي يذكر نسبة العرب أنها من أبناء جفنه بن عمرو المتفرعين عن لحم من ولد كهلان بن سبأ ملكت أطراف الشام وعرفت بمازن أو الغساسنة، ومنهم ملوك غسان المعروفون في تاريخ العرب في الجاهلية⁽⁵²⁾. ومن المحتمل أن بني مدافع جاؤوا مع جيش الفتح الإسلامي خلال القرن الأول الهجري/ 7م واستقروا أثناء ذلك ببلاد نفزاوة جنوب غربي إفريقية، وخلال أوائل القرن الثالث الهجري/ 9م نزح فرع من بني مدافع إلى نفطة فاستوطنوها⁽⁵³⁾. ومن بطن هذا الفرع ظهر رجل يدعى الخلف كان سيّد عشيرته ونبيها، وكان له أربعة أولاد هم مدافع وأبو بكر وعبد الله ومحمد ورثوا عن أبيهم نبه، و تفرعت عنهم عائلات احتكرت مجد المدينة. واستبد رؤساؤها انطلاقا من سنة 715هـ – 1315م ومنذ هذه السنة تداول بنو الخلف على إمارة نفطة فيما بينهم فكانت لهم شهرة وذاع صيت سلطانهم في جنوب إفريقية، وجبوا أموال الرعية وبنوا منها حصونهم وقويت شوكتهم فاستعملوا شارات الإمارة حسب عبارات ابن خلدون.

بعد أن استقل الإخوة الأربعة من بني الخلف بحكم الشورى بنفطه وأضحوا بذلك يتنازعون الإمارة خاصة عند انشغال الدولة بمحاربة زناته وبني عبد الواد⁽⁵⁴⁾، أرسل سنة 743هـ / 1342م السلطان المتوكل على الله أبو بكر الثاني ابن أبي زكرياء الحفصي (718 – 747هـ / 1318 – 1346م) خيله بإمارة ابنه أبي العباس أحمد، فغزا نفطه بجند يقوده أبو القاسم بن عتو ونظرا إلى السياسة التي اتبعها بنو الخلف، كإثقال كاهل الرعية بالضرائب والتنازع فيما بينهم، انخذل أهل نفطه وانشقوا عنهم وسلموهم إلى سيوف أبي عتو، فضرب أعناقهم، ويذكر ابن خلدون أن أبا القاسم عتو "سامهم سوء العذاب، ولانوا بالفرار بجدران الحصون التي ظنوها مانعهم وتبرأت منهم الرعايا فأدركهم الدهش وسألوا النزول عن حكم السلطان فنخبوا إلى مصارعهم وصلبوا على جذوعهم آية للمعتبرين"⁽⁵⁵⁾، وبذلك

افتتكت المدينة من بني الخلف وضُمَّت إلى مملكة الأمير أبي العباس وضم إليه أبوه جزء كبيراً من نفزاوة ولم ينج من هذا المصير إلا أصغرهم علي لنزوعه إلى سلطان بني حفص "قبل الحادثة فكانت له زمة واقية من الهلكة"⁽⁵⁶⁾.

وعند وفاة السلطان أبي بكر الثاني يوم 2 رجب 747هـ / 1346م عدل الوزير الحاجب ابن تافراجين عن ولي العهد أبي العباس صاحب الجريد إلى بيعة أخيه الأصغر أبي حفص عمر، فزحف أبو العباس مع أنصاره على الحاضرة مطالباً بعرشه واضطربت الأحوال بالجريد ونفته ورجع حكم الشورى بالمدينة، إذ رأى علي بن الخلف الذي نجا من الموت، أن الوضع مناسب لصالحه فاستقل ببلد نفطه، وحكمها في إطار حكم شوري، أي على رأس مجلس قروي يدير شؤون المدينة، منتهزاً فرصة زحف أبي الحسن المريني على البلاد سنة 747هـ / 1346م خلال حكم أبي حفص عمر الثاني 747 – 749هـ / 1346 – 1348م⁽⁵⁷⁾، إذ في سنة 747هـ / 1346م، عندما احتل وهران "وفاه هنالك وفد قسطنطينية وبلاد الجريد يقدمهم أحمد بني مكي أمير جربة ورديف أخيه عبد الملك في إمارة قابس ويحيى بن يملول أمير توزر" وابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نفطه، فلقية هؤلاء الرؤساء بوهران وقدموا له الطاعة وكان معهم علي بن الخلف الذي قدم لهم طاعته، وبذلك وجد منه دعماً كما وجده من بني حفص من قبل، وكان سبباً في نجاته من القتل، وفعلاً قدر له السلطان المريني هذه الطاعة وآتاه ما أراد وأقره على إمارة نفطه⁽⁵⁸⁾ وأقر بها حامية وعقد على بلاد الجريد كلها لمسعود بن إبراهيم بن عيسى اليرنياني، وهو من طبقة وزراؤه⁽⁵⁹⁾، لذلك استقل علي بن الخلف سنة 749هـ / 1348م بإمارة بلد نفطه ورجع أمر الشورى بالمدينة، وأدى علي بن الخلف سنة 764هـ / 1362م فريضة الحج "ورجع قرير العين والتزم طرق الخير والحق والعدالة"⁽⁶⁰⁾، وتوفي في السنة الموالية 765هـ / 1363م⁽⁶¹⁾، فولى بعده ابنه محمد الذي لم تطل مدة إمارته، إذ توفي في نفس السنة، وخلفه عبد الله، الابن الثاني لعلي، الذي اتسمت سياسته بالشدّة والحدة والقوة، فنقمت عليه الرعية من أهل نفطه وسثموا عسفه وبطشه مما جعل أخيه الخلف بن علي بن الخلف يحرض أهل المشيخة على قتله، إذ أنه بسياسته وسيرته هذه أثار حسد القاضي محمد بن خلف الله النفطي، وهو

من طبقة فقهاء إفريقية، فنزل القاضي مغتاطا إلى تونس والتحق بخدمة السلطان أبي إسحاق إبراهيم الثاني الحفصي (المنتصر 751هـ / 1350 م ثم 757 - 770هـ / 1356 - 1368 م بعد احتلال بني مرين لمجمل إفريقية سنة 757هـ) فاستعمله على قضاء الحاضرة، قضاء الجماعة، بعد وفاة أبي علي عمر بن عبد الرقيع، وبذلك حرّض السلطان الحفصي على صاحب نفطه⁽⁶²⁾، فاستجاب له وجهز جيشا بعثه على رأسه لإرجاع إمارة نفطه إلى حكم بني حفص⁽⁶³⁾، وعند محاصرة الجيش الحفصي للمدينة انتهز الخلف بن علي بن الخلف الفرصة ودسّ قاتل أخاه عبد الله وتولى أمر الإمارة واستقل بإمارة نفطه وبقي الخلف على سيادة المشيخة إلى أن توجه السلطان أبو العباس أحمد (772 - 796هـ / 1370 - 1393 م) سنة 777هـ / 1375 م بجيشه إلى الجريد الذي زحف به إلى قفصه والمنطقة، مع عساكر أنصاره من العرب وأولاد مهلهل⁽⁶⁴⁾، فاسترجع قفصه من أحمد بن العابد وابنه محمد، وتوزر من ابن يملول واستولى على ذخيرته، التي سلمها له أهل توزر والتي كانت له عندهم بعد أن تبرؤا منه⁽⁶⁵⁾، ثم استقدم الخلف صاحب نفطه الذي أتاها طائعا وولاه بلده وحجابه ابنه المستنصر - أمير الجريد - وأنزله معه توزر⁽⁶⁶⁾ واستخلف الخلف من ينوبه عن بلده نفطه⁽⁶⁷⁾، ولكنه لم يحم هذا المقام وصبت نفسه إلى الرجوع إلى الاستقلال، فراسل ابن يملول ويعقوب بن علي أمير الذواودة ببسكرة يحرضهما على الثورة، فوقع الرسالة بيد المنتصر بتوزر فسجنه وبعث عماله إلى نفطه واستولى على أمواله⁽⁶⁸⁾، ثم قتله بالسجن⁽⁶⁹⁾. وبذلك أخضع المستنصر نفطه ونقل السلطان أبو العباس أحمد (772 - 796هـ / 1370 - 1393 م) ابنه زكرياء إليها، وأضاف إليه عمل نفزاوة وذلك في أول سنة 790هـ / 1388 م⁽⁷⁰⁾، ومع مقتل الخلف بن علي بن خلف انقضت مبدئيا إمارة بنو الخلف من حكم المدينة وغاب حكم الشورى بها وتواصل الخضوع إلى البيت الحفصي حتى وفاة السلطان أبي العباس أحمد سنة 796هـ / 1393 م. وخلال حكم أبي فارس الحفصي انتفضت المدينة ودخلت في ثورة عارمة ضد هذا السلطان الحفصي ورفضت أداء الإتاوة، وبذلك استقل أهلها عن البيت الحفصي ورجع حكم المجالس القروية وأمر الشورى بها، لكن أبا فارس (796 - 838هـ / 1394 - 1435 م)⁽⁷¹⁾ شن حملة على المدينة وأخضعها وتواصل هذا الخضوع إلى البيت الحفصي إلى حدود سنة

845هـ / 1442م أيام حكم أبي عمر عثمان بن محمد السابق (المنتص) 839 – 893هـ / 1393-1435م التي ثار فيها رجل من مشيخة نفطه من فخذ بني الخلف يُعرف بأبي زكريا، واجتمع حوله أهل نفطه وناصروه وأطردوا نائب السلطان الحفصي، فخرج "المولى الخليفة" بجيوش، يقودها أبو الفهم نبيل، من تونس قاصدا بلد نفطه، ونزل البلدة وحاصرها عدة أيام إلى أن التحق به السلطان. وضيّق الحصار عليها إلى أن دخلها بعد أن قتل الكثير من أهلها ورجعت المدينة إلى سلطان بني حفص في جمادي من سنة 845هـ / 1442م وانتهكت الديار وافتكت الأموال وقبض على أبي زكريا وحُمِل إلى السلطان فأمر بقتله ثم قبض على أبيه فحُمِل أيضا إلى السلطان وقُتل في تونس وأوكل على المدينة قائدا مواليا لبني حفص⁽⁷²⁾.

خلال ثورة عرب إفريقية، أولاد مسكين وأولاد يعقوب والشنانقة من أولاد مهلهل ومن عدة طوائف، خرج أبو عمر وعثمان بعساكر لحربهم سنة 867هـ / 1464م فتفرقوا، وجعل على كل طائفة منهم رجلا منهم، وطارد شيوخ معارضيه إلى أن وصل نفطه وأجبرهم على دخول الصحراء، ثم رجع إلى نفطه وارتاح بها ثم رحل إلى توزر⁽⁷³⁾. وبذلك رجعت المدينة إلى انتفاضتها وخرجت عن السلطان الحفصي وبقيت على استقلال مشايخها إلى عهد أبي عبد الله محمد الخامس المتوكل بن الحسن بن سعود (899 – 932هـ / 1493 – 1526م) الذي وجه ضدها حملة وهدم أسوارها وقصورها: بني علي وفطناسة. وأصبحت واحة نفطه بمثابة المدينة الواحدة وأخضعت للحكم الحفصي⁽⁷⁴⁾. لكن بعد رجوع جيوش أبي عبد الله الحفصي للحاضرة، تونس، ثارت المدينة وانتفضت ورفضت دفع الضرائب، وتواصل ذلك الأمر إلى حدود حكم أبي عبد الله محمد الحسن بن محمد الخامس 932 – 942هـ / 1525 – 1535م، الذي أعاده كارلوس الخامس إلى الحكم سنة 942 – 948هـ / 1535 – 1541م، الذي يذكر مارمول أنه شن حملة على المدينة وفتك بأهلها ودمر جزء من أسوارها ومعالمها⁽⁷⁵⁾ وخضعت المدينة إلى البيت الحفصي إلى قدوم الأتراك سنة 982هـ / 1574م.

ثانيا- معالم مدينة نفطة خلال العصر الوسيط:

في ظل غياب حفريات بالمدينة، يُموَّع الأهالي مدينة العصر الوسيط بموضع يسمى حاليا بـ"البلاد الخالية"، قرب منطقة الرياض بالجزء الجنوبي للمدينة الحالية، وهو موقع أقرب إلى واحة والوادي. وفي هذا الموقع، عند بداية تعميره خلال الثمانينات، عثر الأهالي في الجهة الشرقية منه على بقايا بنايات من الحجر والطين والآجر المشوي وبعض اللقى من الخزف العادي. وخلال العصر الحديث اتُخذ الجزء الغربي والشمالي الغربي من هذا المجال السكني مقبرة تواصل استعمالها إلى حدود بداية القرن العشرين، وتمتد إلى حدود الملعب البلدي حاليا، الذي كان مقبرة ليهود المدينة ومازال إلى حد الآن يُسمى بـ "جبانة اليهود"، وأثناء بعض الأشغال عثر على بقايا هياكل عظمية بشرية مازالت تُستخرج إلى الآن لكن يبقى الأمر افتراضا في انتظار أن تقع حفريات في الموقع للتأكد من صحة ما نقله الشهود خاصة وأن المجال شمله الامتداد العمراني العصري⁽⁷⁶⁾.

حسب ابن خلدون⁽⁷⁷⁾ فإن المدينة كانت قصرا أي نواة حضرية يحيط بها سورا ثم لها مجال زراعي، وهو مجال الواحة، ووصف لنا البكري⁽⁷⁸⁾ من قبله مدينة نفطة على أنها مبنية بالصخر. عامرة وآهلة ثم الإدريسي كمدينة متحضرة عامرة بأهلها⁽⁷⁹⁾ ثم صاحب الاستبصار يذكر أنها مدينة كبيرة وقديمة⁽⁸⁰⁾ وهو نفس ما ذكره الحميري⁽⁸¹⁾ من بعده.

انطلاقا من هذه الشواهد المصدرة نفهم أن مدينة نفطة، خلال العصر الوسيط، شهدت توسعا حضريا وعمرانيا هاما، وكانت مدينة متحضرة بمؤسساتها ومعالمها ومتسعة. لكن البكري من جهته يطرح إشكالا حول بناء المدينة بالصخر، وربما عدم زيارته لإفريقية يجعله ينقل ذلك، ويذكر الدمشقي أيضا بناء المدينة بالصخر⁽⁸²⁾. فالمدينة هي بعيدة نسبيا عن مقاطع الصخر إضافة إلى أن ما عثر عليه تحت الأنقاض من بناءات لا يوحي باستعمال الصخر في البناء. خاصة وأن أقدم المباني القائمة بالمدينة والتي تعود إلى العهد العثماني بنيت بالطوب واللبن وغطت جدرانها بالآجر المشوي المحلي. لذلك من المؤكد أنه خلال العصر الوسيط استعمل في البناء نفس الحجر المستخرج من المقاطع المحلية والمسمى بـ"الفنكر"، ولم يبق من المدينة الوسيطة سوى حجارة على سطح الأرض وسنحاول التنقيب في المصادر لاستخراج العناصر المعمارية خلال العصر الوسيط بالمدينة.

1- السور:

ذكره ابن حوقل⁽⁸³⁾ ثم مجهول الاستبصار⁽⁸⁴⁾ ثم الحميري⁽⁸⁵⁾ الذي يُعيد سرد ما ذكره صاحب الاستبصار. وذكر لنا ابن خلدون، سنة 743هـ/1342م خلال حملة أبي العباس أحمد الحفصي على نفطة، جدران حصون المدينة ويصفها أنها منيعة⁽⁸⁶⁾، ثم خلال أحداث حملة جيش أبي الفهم نبيل، الذي أرسله أبو عمرو عثمان (839-892هـ/1436-1488م) إلى نفطة بعد استقلال أبي زكرياء النفطي بها بعد ثورة قادها، بقي الجيش عدة أيام في حصار المدينة ولم يدخلها إلى أن التحق السلطان وضيق الحصار عليها حتى دخلها⁽⁸⁷⁾. وفي هذه الإشارات دلالة على متانة سور المدينة ومناعته وربما كان سميكا وعاليا يحيط بالمدينة من كل الجهات، وكان مجال الواحة خارج السور لامتداد هذا المجال الزراعي. ومن المؤكد أن هذا السور كان في شكل جدران عالية، إذ يذكر ابن خلدون جدران هذه الحصون⁽⁸⁸⁾، وهو أيضا مبني من الحجر المستخرج من المقاطع المحلية //فنكر أو الطوب الطينية، إذ اعتاد أهل المدينة استعمال مواد البناء المحلية: من حجر وتراب وخشب النخيل. وللمقاربة فإن ابن الشماخ يذكر سور توزر بأنه مبني بالحجر والطوب⁽⁸⁹⁾ لذلك نظرا إلى القرب الجغرافي للمدينتين ربما كان سور نفطة على نفس نمط سور توزر قد قُد من الطوب والحجر⁽⁹⁰⁾.

2- الأسواق:

ذكرها الإدريسي في وصفه للمدينة⁽⁹¹⁾، ولأن المدينة تقع على نهاية الطريق السودانية الآتية من الجنوب، طريق قوافل الذهب والعبيد، ونظرا إلى علاقات التبادل التي ربطتها مع شمال إفريقيا وباقي بلاد المغرب من خلال تجارة التمر واستبداله بمنتجات أخرى كالقمح والشعير، فلقد مثلت المدينة محطة تجارية هامة وملقى لتجار العبيد والذهب والتمور والحبوب والكساء وغيرها. وكانت بها محطات لعرض هذه البضائع وفيها يتعاطى الناس تجاراتهم⁽⁹²⁾ الواسعة. ومن الأكيد أن أسواق المدينة كانت في شكل دكاكين كما هو الحال بتوزر الوسيطة⁽⁹³⁾.

3- الجامع:

ذكره البكري⁽⁹⁴⁾ ثم الحميري⁽⁹⁵⁾ ثم الونشريسي في عدة مواقع⁽⁹⁶⁾، فهل كان بالمدينة خلال العصر الوسيط جامع وحيد يصلي به عدد كبير من المصلين وتقام به صلاة الجمعة؟ أو هناك جوامع أخرى غفل

عن ذكرها المؤرخون، فمدينة العهد العثماني بُني بها أكثر من 100 معلم ديني من جوامع ومساجد وزوايا ومدارس، لذلك ونظرا إلى سكوت المصادر عن ذكر بقية جوامع نفطة رغم امتداد عمرانها، سنلجأ إلى دراسة *DECLAM* التي أحيانا تخرج عن الحقيقة التاريخية وترتقي إلى رتبة الأساطير، وحسب هذا الباحث فإن أهم جوامع العصر الوسيط بالمدينة هي⁽⁹⁷⁾:

❖ جامع سيدي ماجور بمنطقة بني علي القديمة قرب ضريح سيدي مرزوق (أي موقع درجين السفلي الجديدة) وبني سنة 798هـ/ 1395م.

❖ جوامع سيدي مخارق وسيدي مزهود بعرض علقمة وسيدي جبنون بعشيرة الجبابنة من عرش الشرفاء التي بُنيت سنة 901هـ/ 1495م.

4- الحمامات :

ذكرها البكري(98) ثم الحميري(99) وهي حمامات كثيرة حسب المؤرخين نظرا إلى توفر الماء الساخن(100) بالواحة والذي يخرج من عيون رأس العين وتتجاوز درجة حرارته 37 درجة مئوية.

5- القصبة:

يذكرها الوزن⁽¹⁰¹⁾ ثم مارمول⁽¹⁰²⁾ الذي يعيد نفس ما ذكره الفاسي في شأن نفطة، من أنها مقسمة إلى 3 قصور عظيمة لا سيما القصر الذي توجد به القصبة⁽¹⁰³⁾. وقد يكون تأسيس القصبة تم خلال حكم بني الخلف الذين استقلوا بالحكم نظرا إلى أن المصادر لم تذكر وجود قصبة في نفطة في حديثها عن أخبار الفترة السابقة لأيام بني الخلف. وبناء القصبة كان انجازا منتظرا نظرا إلى ما عرفه بنو الخلف من ثراء وقوة في السيطرة على الوضع، إضافة إلى ذلك ما ذكره الوزن، في وصف المدينة في نفس الفترة، أن سكانها كانوا من كبار الأغنياء وبناءاتها تُحيل على أنها مدينة رومانية⁽¹⁰⁴⁾، إضافة إلى إشارة ابن خلدون لقصور بلاد الجريد⁽¹⁰⁵⁾. فالمدينة كانت قصرا يتوسط بنيته التعميرية قصبة أو قصرا للحكم المستقل ويحيط بالمدينة سور يفصلها عن مجالها الزراعي الواحي. والمؤكد أن القصبة كانت محكمة البناء وحسنة الإتقان ذلك أن بنو الخلف عرفوا ثراء وقوة، ولتأمين استقلاليتهم وسيطرتهم على البلاد والعباد في عمل نفطة، وجب عليهم إحكام بناء القصبة لتركيز نفوذهم.

6- الفندق:

لم نجد له ذكر في المصادر التاريخية سوى في تاريخ أبي زكريا وذلك في حديثه عن أبي نوح سعيد بن زنگيل (الطبقة الثامنة 350-400هـ)⁽¹⁰⁶⁾، الذي نزل بقنطرة نفطة، بعد الحرب التي دارت بين وهابية ونكارية الجريد بفحص توزر والقتال الشديد الذي دار بينهما، وتمارض فيها ثم حُبس بتوزر بعد أن عظمت منزلته بالمنطقة، فجاءت فرقة من أريغ إلى قسطنطين وفيها رجل من أهل الدعوة الإباضية يُقال له يوسف بن توجنيت ووصلوا إلى نفطة وعندما سمع الشيخ بحلول الفرقة أرسل إلى يوسف، ولما جاءه سأله أبو نوح عن جمال ثياب فذكر له جمال أصحابه من بني تكسنيت تعدد 18 جملا، كانت في فندق نفطة⁽¹⁰⁷⁾.

انطلاقا مما ذكره أبو زكريا فإنه كان بالمدينة فندقا لاستقبال الغرباء من التجار والعلماء والدعاة من المذهب الإباضي والشيوعي الذين ينزلون بالمدينة ولم يكن لهم بها مأوى، فالمدينة بأرباضها كانت قبلة لعدة نزلاء، من أصحاب الدعوة الشيعية أو الإباضية، خاصة الوهابية منهم، أو من تجار الجنوب الذين يمارسون تجارتهم بأسواق المدينة لبيع العبيد والذهب ولتسويقها، وتجار شمال إفريقيا وبلاد المغرب لبيع الحبوب وغيرها ومقايضتها بالتمر والأكسية أو شراءها... ربما كلها كانت تنزل بالفندق، وحسب ما ذكر في المصدر فلقد كان الفندق، إضافة إلى بناء لإيواء النزلاء من الغرباء، به إسطبل للحيوانات يتسع إلى أكثر من 18 جملا.

نظرا إلى موقعها الاستراتيجي، كمدخل للصحراء على طريق القوافل، وموقع محمي طبيعيا على مضيق الشطوط والذي تتوفر فيه كل أسباب العيش من منابع مياه ومجال واحي، مثلت واحة نفطة خلال العصر الوسيط ملاذا آمنا لعدد من التيارات المعارضة للسلطة المركزية ببلاد إفريقيا، وهو ما حولها إلى ساحة صراع أو وغي لعبت فيها هذه القوى دور أطراف الصراع، كالصراع بين شقي الإباضية من وهبية ونكارية، أو بين الإباضية والمالكية أو بين البربر والعرب وحتى بين أفراد العائلات الحكومية، وهو ما جعلها عرضة لعدة ضربات رسمية تأديبية موجهة من السلطة المركزية بالقبور والمهدية وتونس، الأغلبية أو الفاطمية أو الصنهاجية أو الموحدية وآخرها الحفصية، لتكون آخر القرن 9هـ/ 15م مجالا غير آمن للتعمير، وهو ما تسبب في نفور القبائل البربرية من التوطن بها وجعلها مجال

استقرار لبعض بطون القبائل العربية فقط خلال الفترة الحديثة، ذلك بعد القرن الـ10هـ/16م، كقبائل مرداس وطرود وبنو يزيد ثم غريب السليمية، وهو ما سيُغيّر من المشهد التعميري لواجهة نفطة التي ستتحوّل من مجال للعمران المتصدّع والمشتت الذي تشكّله حاضرة مصغرة يحيط بها أرباض، إلى مجال تعميري ضيق يُشبه القرية، وخلال العهد الحديث سيُعوّض مفهوم الرّوض بمفهوم العرش أو العشيرة خاصة بعد نزول بطون من قبائل عربية انطلاقاً من القرن الـ10هـ/16م بالمجال⁽¹⁰⁸⁾، والتي بدورها ستبني مساجد وجوامع وزوايا خاصة بها سمتها بأسماء أسلافها الصالحة، وهو ما جعل المدينة عديدة المعالم الدينية رغم عدد سكانها القليل، وتجاوزت المائة، اندثر العديد منها ولم يبق سوى الطبونيميات.

الإحالات :

- ¹ - النوري (نور الدين)، واحة نفطة خلال العهد العثماني: دراسة في الآثار والعمران، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في علم الآثار وتاريخ الفنون الإنسانية، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، تونس 2005، ص 13.
- ² - الباهي (أحمد)، فهرست أسماء الأماكن بمقاطعة البيزاسين (=المزاق؟) في العهد الوسيط I - X - VII - XVI م من خلال المصادر، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 1995، ص 208.
- ³ - Marçais (G.), "Nafta", in *E.I.*, VI, 1993, p.891.
- ⁴ - حول ثورة لفل بن سعيد بن خزون الزناتي عامل طينة بجنوب إفريقية وطرابلس انطلاقاً من سنة 390 هـ / 999 م. أنظر ابن عذاري (عبد الله بن محمد المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، جزء 1، تاريخ إفريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري، تحقيق ومراجعته س. كولان والفي بروفنسال، لبنان، بيروت، 1948، ج 1، ص. 358-367.
- ⁵ - DE CLAM, Declam (P.), « Fastes chronologiques de la ville de Nafta », in *Bulletin de la société de Géographie de Toulouse*, T.X, 1890, p-p. 403-409.
- ⁶ - ابن الشباط (محمد بن علي بن محمد التوزري)، صلة السمط في سمة المرط، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية تحت رقم 18367، ورقة 100.
- ⁷ - نور الدين النوري، واحة نفطة خلال العهد العثماني، ص. 25-37.



- ⁸ - Plin l'Ancien, *Histoire Naturelle*, livre V, 1, 46, edit. Desanges (J.), Les belles lettres, Paris, 1980, p 402.
- ⁹ - Desanges (J.), *Catalogues des tribus africaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil*, Dakar 1962, p. 129.
- ¹⁰ - Cagnat (R.), *L'armée romaine*, Paris, 1913, p-p 110-111.
- ¹¹ - Baradez (J.), *Fossatum Africae*, Paris, 1949, p. 119.
- ¹² - Plin l'Ancien, *H. N*, op.cit, p. 402.
- ¹³ - Shaw (T.), *Travels and observations relating to several parts of the Barbary and the Levant*, Frankfurt 1995, p. 211.
- ¹⁴ - Ibid.
- ¹⁵ - *C.I.L.*, VIII, XVI, p. 22.
- ¹⁶ - Guérin (V.), *Voyage Archéologique dans la régence de Tunis*, 2 vol., Paris 1862, p. 267; Baraban (L.), *A travers la Tunisie, Etudes sur les oasis, les dunes, les forêts, la flore et la géologie*, Paris, 1887, p. 119.
- ¹⁷ - Salama (P.), *Les Voies romaines de l'Afrique de nord*, Alger 1974, p. 120.
- ¹⁸ - Tissot (Ch.), *Géographie comparée de la province d'Afrique*, T.I, Paris, 1884, pp. 125 – 127.
- ¹⁹ - Pelligrin (A.), *Essais sur les noms des lieux romains d'Algérie et de Tunisie, Ethymologie, signification*, Tunis, 1949, p.122, p.241.
- ²⁰ - Lancel (S.), *Actes de la conférence de Carthage en 411*, T.IV, Paris, 1991, p.1435.
- ²¹ - Morcelli (S.A.), *Praepositi ecclesiae clarensis africa christiana*, vol.II, 1816, pp. 242 – 243.
- ²² - Troussset (P.), *Recherches sur le Limes tripolitanus de Chott-El-Djerid à la frontière Tuniso-libyenne*, Paris, 1974, p.32, p.37.
- ²³ - Salama (P.), *Les voies romaines...*, op.cit, p. 120.
- ²⁴ - التجاني (أبو محمد عبد الله)، الرحلة، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1958، ص 162؛ مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، 1986، ص. 150.
- ²⁵ - السراج (محمد بن محمد الأندلسي)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، بيروت 1985، ج 1، ص. 378.
- ²⁶ - التجاني، الرحلة، ص. 162؛ ابن أبي دينار (أبي عبد الله بن أبي القاسم)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس 1967، ص. 31.
- ²⁷ - يحيى معمر (علي)، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية، الإباضية في تونس، ط 1، لبنان، بيروت 1966، ص. 47.
- ²⁸ - النعمان (القاضي أبو حنيفة النعمان)، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، 1975، ص. 27.

- ²⁹ - الشماخي، كتاب السير، تحقيق و مراجعة ودراسة محمد حسن، تونس 1995، ص-ص 206 - 208.
- ³⁰ - ابن عذاري، البيان، ج 1، ص. 145.
- ³¹ - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص. 27.
- ³² - الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد)، طبقات المشائخ بالمغرب، (جزان)، تحقيق وطبع إبراهيم طلاي، قسنطينة، الجزائر 1974، ج 2، ص. 352.
- ³³ - ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي)، الكامل في التاريخ، بيروت 1966، ج 8، ص. 422 - 426.
- ³⁴ - أبو زكرياء (يحيى بن أبي بكر الوارجلاني)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، حققه ووضع هوامشه إسماعيل العربي، الطبعة الثانية، بيروت، 1982، ص. 178؛ الدرجيني، الطبقات، ج 2، ص. 98.
- ³⁵ -الدرجيني، الطبقات، ج 2، ص. 500.
- ³⁶ - التجاني، (أبو محمد عبد الله)، الرحلة، ص. 119؛ السراج، الحلل السندسية، ج 2، ص. 356.
- ³⁷ - عرفت الواحة سنة 423 هـ / 1031 - 1032 م نزول جمع كبير من شيعة افريقية إلى نفطة، ويذكر ابن الأثير أنهم ساروا إلى أعمال نفطة فاستولوا على بلد منها وسكنوه، لكن المعز بن باديس أرسل إليهم عسكرياً قتلهم أجمعين. ومن المؤكد أن هذا الجمع من الشيعة سكن نفطة المدينة لأن أرباضها تميزت بالتوجه أو بالفكر الإباضي، وهذه الإشارة تؤكد وجود أعمال أو أرباض تابعة إلى نفطة في تلك السنة، أي أن المشهد الحضري يتمثل في شبه حاضرة، نفطة، تحيط بها أرباضها والتي نشك في تبعيتها الإدارية لها. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 9، ص. 427.
- ³⁸ -الدرجيني، الطبقات، ج 2، ص. 407.
- ³⁹ - ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمان)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1959، ج 6، ص. 46.
- ⁴⁰ -الدرجيني، الطبقات، ج 2، ص. 500.
- ⁴¹ - ابن الشباط، مخطوط صلة السمط، ورقة 80.
- ⁴² - نفس المخطوط، نفس الورقة.
- ⁴³ - الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، 4 أجزاء، ج 3، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس 1993، ج. 3، ص 220؛ العدواني (محمد بن محمد بن عمر)، تاريخ العدواني، تحقيق أبي القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، د. ت، ص. 150؛



KARAMTI (Yassine), «La ville, Les saints et le Sultan, études sur les changements social dans la région de Nefta au XIX et XX siècle», in Correspondance I.R.M.C, N° 56, Bulletin d'information scientifique, Tunis, 1999, p-p. 3-9; PENET (P.), *Kairouan-Sbeitla, le Djerid, guide illustré du tourisme dans le Sud Ouest tunisien*, Imprimerie tunisienne, Tunis, 1912, p. 97.

⁴⁴ - A. N. T, Notices de tribus, Etude sur le Djerid tunisien, 615, carton 118, 1895, F. 73.

⁴⁵ - Penet (P.), *Kairouan – Sbeitla – Djerid*, Tunis, 1912, p. 97.

⁴⁶ - العدواني (محمد)، تاريخ العدواني، تحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، بيروت، د.ت، ص. 150.

⁴⁷ - ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان الفاسي)، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد

الأخضر، الطبعة الثانية، بيروت 1983، ج 1، ص. 139.

⁴⁸ - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 785 – 786.

⁴⁹ - هنالك علاقات كبيرة بين بني مرين وأهل الجريد، إذ يذكر ابن خلدون أنه عند تغلب العرب على بلاد إفريقية وانحلال البيت الموحد كان بقفصة عامل لسنهجة يدعى عبد الله بن محمد بن الرند وهو من بني مرين من مغراوة الذين سكنوا بلاد نفزاوة وبايعته عند توسع سلطانه ببلاد الجريد وقفصة ونفزاوة سنة 645 هـ / 1247م إلى أن توفي سنة 665 هـ / 1266م فولى من بعده ابنه المعتز أبو عمر الذي اخضع قمودة وجبل هواره وكل بلاد قسطنطينية. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 338 – 339.

⁵⁰ - فعند هلاك السلطان وابنه الأمير أبي العباس صاحب الأعمال الجريدية سنة 747 هـ / 1346م رجع إلى كل مصر من الجريد مقدموه ورجع علي بن خلف إلى نفطه واستبد بها ورجع يحيى بن محمد بن أحمد بن يملول إلى توزر بعد أن فر إلى بسكرة ثم رجع أمر الجريد إلى رئاسة مقدمه. ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 934.

⁵¹ - نفس المصدر، ص. 877.

⁵² - انظر: ابن حزم الأندلسي (أبي محمد)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1982.

⁵³ - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 934.

⁵⁴ - نفس المصدر، ج 6، ص. 799.

⁵⁵ - نفس المصدر.

⁵⁶ - الزركشي، (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم)، تاريخ الدولتين الموحديّة والحفصيّة، تحقيق وتقديم الحسن البعقوبي بمساعدة محمد قريمان ومحمد صالح العسلي، تونس 1998، ص. 168.



- 57 - ابن خلدون ، العبر، ج 7، ص. 353؛ الزركشي ، تاريخ الدولتين، ص. 169، ص. 168.
- 58 - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 945.
- 59 - نفس المصدر، ص. 936.
- 60 - نفس المصدر، ص. 937.
- 61 - نفس المصدر، ص. 937.
- 62 - الزركشي، تاريخ الدولتين، ص. 109.
- 63 - نفس المصدر.
- 64 - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 693؛ الزركشي ، يذكر الخبر ضمن أحداث سنة 739 هـ / 1377 م؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص. 221.
- 65 - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 939.
- 66 - نفس المصدر ، ص. 880 – 881؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص. 222.
- 67 - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 939؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، ص. 222.
- 68 - نفس المصدر.
- 69 - نفس المصدر، ص. 223.
- 70 - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 883، ص. 900، ص. 910.
- 71 - الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص. 139.
- 72 - الزركشي، تاريخ الدولتين، ص. 278.
- 73 - نفس المصدر، ص. 305 – 306.
- 74 - الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص. 139.
- 75 - مارمول، إفريقيا، ج 3، ص. 169.
- 76 - نور الدين النوري، واحة نفطة خلال العهد العثماني، ص. 117-121.
- 77 - ابن خلدون، العبر ج 6، ص. 799.
- 78 - البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص. 743.
- 79 - الإدريسي، تزهة المشتاق، ص. 278.
- 80 - الاستبصار، ص. 156.

- 81 - الحميري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، طبعة أولى، بيروت، 1975، ص 578. يذكر الوزان الفاسي الذي زار تونس سنة 926 هـ/1520 م لكنه لم يزر المدينة أن نفطة "رغم كثرة عدد سكانها فليس لها إطلاقاً طابع مدينة متحضرة". ونقل مارمول ذلك على أن المدينة لا وجود لشرطة بها. ربما قيل ذلك لخروجها في عدة مرات عن البيت الحفصي وإعلان انفصالها عن السلطة المركزية. الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ج 1، ص 139؛ مارمول، إفريقيا، ج 3، ص. 169.
- 82 - الدمشقي (شمس الدين)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، كوبنهاغن، 1865، ص. 238.
- 83 - ابن حوقل (أبو القاسم محمد)، صورة الأرض، تحقيق م.ج. دي خوي، طبعة بريل - ليدن، 1967، ص. 94.
- 84 - الاستبصار، ص. 156.
- 85 - الحميري، الروض المعطار، ص. 578.
- 86 - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 799.
- 87 - الزركشي، تاريخ الدولتين، ص. 278.
- 88 - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 799.
- 89 - ابن الشماخ، الأدلة البينة، ص. 32.
- 90 - أكثر عناصر البناء صلابة بنفطة هي الآجر المشوي لكن بناء سور كامل بهذا العنصر يتطلب مدة طويلة نظراً إلى صغر حجمه وتطلبه لكميات أكثر من الملاط، خاصة وأن المدينة تعرضت لحملات تآديبية متتالية، لذا نستبعد أن يكون السور قد قُذ أو بُني كلياً بالآجر ربما بنيت أجزاءه الهامة بالطوب وإن كانت فيه أبراج ربما أستعمل الآجر لِقَدّها. لذا فهل يقصد ابن الشماخ بالحجر الآجر؟ المصدر السابق.
- 91 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ص. 278.
- 92 - نفس المصدر.
- 93 - أبو زكرياء، سير الأئمة، ص. 165.
- 94 - البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص. 743.
- 95 - الحميري، الروض المعطار، ص. 578.
- 96 - الونشريسي (أحمد بن يحيى)، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، 13 جزء، أخرجه جماعة من الفقهاء بأشراف محمد حجي، بيروت، 1990.
- 97 - DECLAM, "Fastes...", op.cit, pp. 61-64.
- 101 - نفس المصدر.



- 102 - مارمول، إفريقيا، ج 3، ص. 169.
- 103 - نفس المصدر.
- 104 - الوزان، وصف إفريقيا، ج 1، ص. 139.
- 105 - ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 799.
- 106 - الدرجيني، الطبقات، ج 2، ص. 353، 361.
- 107 - أبو زكرياء، تاريخ الأئمة، ص. 240، 243.
- 108 - سبلة (ذاكر)، المعمار والتعمير ببلاد الجريد من القرن 16 إلى القرن 19، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم التراث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، تونس، 2013.